ثنائية الالتزام والتحرر وتمثلاتهما في رواية بابا سارتر لعلي بدر

م.د. نور عقيل محمد سعيد
كلية التربية للبنات– الجامعة العراقية

الكلمات المفتاحية: الالتزام ، التحرر ، الرواية

الملخص:

تعد الرواية الجنس النثري الأكثر حضورا في مناقشة القضايا الإجتماعية والأخلاقية ، و لعل مرجع ذلك طبيعتها الطويلة وقربها من الفئات المتباينة في المجتمع لا فرق في ذلك مرجع المتلقي الثقافي و الطبقي والجنسي ، وكانت هذه الميزة طريقا ممهدا للكتاب والروائيين سلكوا من خلاله اتجاهات عدة للتعبير عن اعتقاداتهم و ممارسة حريتهم التي منحها لهم الفن الروائي متأرجحين بين الإلتزام والتحرر منهجين متداخلين حينا ومفترقين حد التناقض حينا آخر ، وكان علة اختيار رواية بابا سارتر لعلي صراحتها المتناهية وصدورها عن كاتب مهموم بهموم مجتمعه معنيّ بكشف أعراضه وتصويرها بواقعية أمام القراء منجزا في محاولته تلك الغاية المرجوة من الكشف الفني لمجتمع ملتزم أو متحرر بأهداف مستندة على قناعة حقيقية أو أهداف تخفي وراءها مصالح مادية ومعنوية.

المقدمة

انطلقت النتاجات الروائية الحداثية لترسيخ القيم الفكرية والموضوعية التي كانت منتشرة في المراحل التأريخية التي أعقبت النتاجات الأدبية المتأثرة بتيارات الفنون الحداثية وما بعد الحداثية ، ومن هذه القيم الفكرية الإلتزام الفني والموضوعي ونقيضهما التحرر، وهي ثنائية فكرية ثقافية سادت هذه النتاجات الأدبية بحسب اعتناقات الكتاب وتوجهاتهم الفكرية ، فقد عبروا عنها بمصداقية تحاكي الواقع لمعالجة التوجهات المحكومة بقيود تراثية ودينية وتقاليدية قديمة قد يوافقوا بعضها و ينقضوا البعض الآخر محكومين بالظروف التي تحيط بهم يسبقها إيمانهم بها من عدمه ، ولم تكن غاية بعضهم إصلاح عيوب المجتمع من خلال إنتاج فن هادف بل نشدوا الغاية الجمالية و الفنية للنتاج الأدبي ورسخوا فكرة الفن للفن ، ومنهم من حاول التوفيق بين الفكرين المتناقضين لمجاراة التقدم العلمي والثقافي والفني الحاصل في العالم اليوم وهو سبب اختيار رواية بابا سارتر مجال البحث ، ولعل هاته المحاولات كانت ناجحة لإغناء الساحة الأدبية والفنية في إنتاج نصوص واقعية تنماز بالحداثة ومقاربة الوضع الراهن .

ومن خلال هذه الدراسة تم تسليط الضوء على هذه الثنائية من منظور معكوس وهو منظور السخرية السوداء من الأفكار المصالحية المحكومة بدوافع نفعية فردية تتظافر لتصبح ظاهرة تسم مرحلة معينة من تاريخ العراق الحديث ، فقد عنيت بجمع نماذج من النصوص التي وردت في الرواية ودراستها وفق المنهج التحليلي لتشخيص هذه الظاهرة الأدبية وتقديمها للقراء والدارسين إغناء للساحة الفكرية والثقافية .

وقد قسم البحث على مبحثين ومقدمة وخاتمة ، قمت بدراسة تعريف الالتزام لغة واصطلاحا في المطلب الأول ، ومفهوم الالتزام في الأدب في المطلب الثاني ، وتمثلات الالتزام في رواية بابا سارتر في المطلب الثالث ، كما درست ظاهرة التحرر وتمثلاتها في المبحث الثاني ، كان لتعريف التحرر لغة واصطلاحا مطلب أول ، ولتعريف التحرر في المفهوم الأدبي مطلب ثان ، ولتمثلات التحرر في رواية بابا سارتر مطلب ثالث، أسأل الله القبول و تحقيق المنفعة العلمية المرجوة.

المبحث الأول : الإلتزام في الرواية العراقية

المطلب الأول : تعريف الإلتزام لغة واصطلاحا

الإلتزام لغةً :يشير مفهوم الالتزام في اللغة إلى التمسك والثبات ومن ذلك ما قاله ابن منظور : " الالتزامَ في اللغةِ من اللزوم؛ أي الثباتِ والدوامِ، لزمَهُ الشيءَ؛ أي صارَ واجبًا ثابتًا عليهِ ، و الالتزامُ بمعناهُ العامُّ: أن يُوجبَ الإنسانُ على نفسِهِ أمرًا، إمّا باختيارِهِ وإرادَتِهِ، كالتعاقدِ على بيعِ شيءٍ أو إجارةٍ أو هبةٍ وغيرِها من التصرفاتِ والعقودِ، أو بإلزامِ الشرعِ لهُ ، كالنذرِ واليمين "[1].

وكذلك قيل " لَزَمَ الشيءَ يَلزمُهُ لزمَاً ولزوماً ، ولازَمَهُ ملازمةً ولِزاماً ، والتزامُهُ ، وألزمَهُ إياهُ فالتزمَهُ ، ورجلٌ لُزمةٌ يلزمُ الشيءَ فلا يفارِقُهُ ، واللزامُ : الملازمةُ للشيءِ والدوامُ عليهِ ، والإلتزامُ الاعتناق "[2]

و" لَزمَ الشيءُ : ثبُتَ ودامَ ، لَزِمَ بيتَهُ : لم يفارِقهُ ، لَزمَ بالشيءِ تعلَّقَ بِهِ ولم يُفارِقهُ ، إلتزمَهُ : إعتنقَهُ ، إلتزمَ الشيءَ : لَزمَهُ من غيرِ أن يفارِقهُ ، إلتزمَ العملَ والمالَ : أوجبَهُ على نفسِه" [3]

الإلتزام اصطلاحاً: اعتبار الكاتب فنه وسيلة لخدمة فكرة معينة عن الإنسان لا مجرد تسلية غرضها الوحيد المتعة بالجمال [4]، و الإلتزام في النقد الأدبي هو : " أن يلتزم الأديب في أعماله الأدبية عقيدة من العقائد، أو مبدأ من المباديء، أو فلسفة من الفلسفات"[5] ، تصدر عن اعتناق تام وإيمان مطلق بصحة هذه الأفكار ورغبة حقيقية في أقناع الآخرين بها من خلال دعوتهم إليها وحثهم على على التمسك بها والثبات عليها .

المطلب الثاني : مفهوم الالتزام في الأدب

الالتزام يرتبط ارتباطا وثيقا بقضية معينة ، و يقتضي تحقيق أهداف ذات صلة بتغيير المفاهيم المغلوطة من وجهة نظر الكاتب نفسه ، إنها عملية إعادة تدوير - إن صح التعبير – للقناعات العامة المشاعة في مجتمع من المجتمعات ، وهذه الغاية لابد أن تكون موجودة وإلا عدت كتابة العمل الأدبي مضيعة للوقت.

يعتمد الكتاب في تصدير أفكارهم على حقائق مثبتة وآراء فكرية لفلاسفة و أدباء وكتاب سابقون فضلا عن أفكارهم الخاصة ، إذ وجهوا الأنظار إليها في كتاباتهم ودعوا إليها بإخلاص غير مشوب ،كما يتحمل الكاتب مهمة إثباتها واقناع المجتمع بها ، وهي أفكار تحمل الخير والصلاح وترسخ قيم العدالة المفقودة ، مشترطا على نفسه الوضوح والإقناع والإلتزام بخصائص النص الأدبي الناجح ، دون أن يكون مجحفا بالأساليب الفنية التي تضفي على النص جماله وروعته .

والإلتزام عملية مشاركة قائمة بين الكاتب والناس ، يشاركهم همومهم ومواقفهم تجاه القضايا العامة ، يناقش من خلال كتاباته قضايا سياسية وإجتماعية و أدبية بحزم وقدرة إقناع ، وقد عد محمد مندور الأديب الملتزم هو " المقدر لمسؤليته إزاء قضايا الإنسان والمجتمع في عصره "[6].

وتنطبق على الكاتب الملتزم صفة التحرر ، وهي صفة إيجابية تسم أي مجتمع بالتطور والإزدهار ، فلا يكون الكاتب المسكون بهموم مجتمعه ملتزما إلا في بيئة حرة تسمح له بالتعبير عن أفكاره ، لذا فإن أي فكر ملتزم لابد أن يكون صادرا عن إيمان بفكر معين واستعداد للدفاع عنه ، وهذا كله يتم في مجتمع منفتح قابل للنقاش وإبداء حرية الرأي وهو يتطلب أن تكون حرية الرأي مكفولة من قبل سياسة دولة قوية ومنفتحة[7] .

ولا يشترط في هذه الأفكار إيجابيتها أو انطلاقها من فكر عقائدي أو ديني معين ، فما يكتبه الاديب مرآة لفكره ومجتمعه يصور ما يراه حوله وفق اعتماده على تقييمه الخاص ، وقد اشترط زكي نجيب محمود في التزام الأديب شرطين هما:

1. الأديب ملزم على أن يتناول في أدبه قضايا وطنه الاجتماعية والسياسية ويدافع عنها .
2. التكلم بلسان الجماعة ، والوقوف إلى جانب الشعب والتعبير عن واقعه المعاش[8].

وقد ارتبط الحديث عن ظاهرة الالتزام بنقاش أدبي تداخل مع نظرية الفن للفن ، ذلك أن الأدب في نظر جماعة الفن للفن نشاط فكري يتحرر من الدعوة المباشرة للفضائل ، واستكتابه لا يقتضي إصلاح المجتمع الموبوء بالكثير من السلبيات ، ومن قبيل الإنصاف رسم أبعاد هذا المجتمع من جميع جوانبه دون انتقاء، وليس من مهمة الكاتب أن يصلح هذه الأخطاء بل يتاح له

ما لا يتاح لغيره من باب الإرتقاء بمعايير العمل الأدبي الفنية والجمالية ، والحق أن الموازنة بين الإصلاح والتهذيب ورسم العيوب الواقعية مطلوبة في كل عمل أدبي هو بالنهاية موجه لفئات المجتمع المتلقي باختلاف مشاربها .

ولم يفرد المفكرون والفلاسفة القدماء فصولا في مؤلفاتهم للحديث عن الإلتزام ، لكنهم أشاروا إليه ضمنا في معرض حديثهم عن جدوى الأدب فقد التزم أفلاطون بالمثالية الخلقية في جمهوريته ، تبعه أرسطو حينما نادى بنظرية التطهير ، وهي أول إشارة إلى الإلتزام في العمل الأدبي من خلال حديثه عن المحاكاة في الأدب و توصيفه للمأساة التي تصور مشاكل الأفراد في المجتمع ومعاناتهم من الشرور والخطايا التي تصم المجتمع[9] .

وقد كان أول تعريف للأدب الملتزم الجاد يرجع إلى المفكر الفرنسي جان بول سارتر زعيم الفكر الوجودي مرتبطا بالواقعية الإجتماعية عام 1935 م[10]، إذ يقول : " مما لا ريب فيه أن الأثر المكتوب واقعة اجتماعية ، ولابد أن يكون الكاتب مقتنعا به عميق اقتناع ، حتى قبل أن يتناول القلم ، عليه بالفعل ، أن يشعر بمدى مسؤليته ، وهومسؤؤل عن كل شئ "[11]، كما ربطه بتعديل الحاضر لبناء المستقبل واشترط لتحقيق ذلك توافر الحرية الفكرية [12].

وبالرجوع إلى تراثنا الفكري والأدبي العربي وجدنا أن قضية الإلتزام ارتبطت بالأدب الحديث ، فلم تكن إلا ردة فعل على المذاهب الأدبية والفنية الغربية التي غزت أفكارها مجتمعنا الفكري والثقافي العربي مع بوادر حركات النهضة العربية المصحوبة بالتغييرات الايدلوجية على أثر المترجمات الغربية الجديدة على فكرنا وثقافتنا العربية الملتزمة ، وهو أمر كان حدوثه واجبا للتصدي للأفكار المنحرفة التي أخذت تشوب أفكار بعض الأدباء والكتاب العرب ، وقد فطن كثير من المفكرين العرب إلى هذه الدعوات وانطلقوا في مؤلفاتهم للتصدي لهذ الأفكار خشية من أثرها السيئ على المجتمع العربي المحافظ ، مدافعين عن القيم الدينية والأعراف الاجتماعية التقليدية متصدين لدعاة التجديد ، وسلخ الأمة العربية عن هويتها العربية والإسلامية المحافظة

ومن هؤلاء الادباء العرب الرافعي وزكي مبارك ومعاصريهما ، فقد واكب هؤلاء فترة سياسية عارمة تطمح للتغيير وتهجين ثقافة الأمة ، إذ عرفت بكثرة المعارك الفكرية وخصوبة الإنتاج ، " فقد دارت معارك قوية حول المفاهيم الأدبية والمفاهيم الثقافية ، ولم تكن حوارا علميا هادئا ...فالمعركة الأدبية أو المعركة الفكرية هي التي تختلف حولها وجهات النظر تماما ، فهذا يرى ما لا يرى صاحبه ، ولهذا معتقد يختلف كل الإختلاف عن معتقد محاوره " [13] ، وبهذا نجد دعوات

الإباء العرب للإلتزام الديني والأخلاقي في كتابة النصوص الأدبية خاصة والفنون السمعية والبصرية الأخرى عامة .

إن من سمات الأدب الجيد – برأيهم- الإلتزام بالقيم والدفاع عن العقائد ولا يصح للأديب التخلي عنها ولو تذرع لذلك بالانتماء الحزبي والقومي والمذهبي ، وعليه أن يكون حارسا للفضيلة ذابا عن حمى الدين [14]

لقد تحملت الرواية - بوصفها فنا شعبيا – مسؤلية التعرض لمشاكل المجتمع وسلبياته وإخفاقات مواطنيه بكل صدق وواقعية ، وكانت من أكثر الفنون الأدبية شجاعة في التعرض للموضوعات المسكوت عنها أو ما يسمى بالتابوه وهي الثلاثي المحرم السياسة والدين والجنس ، وقد واجهت الأعمال السردية صراعا نقديا بين مؤيد للالتزام ومناهض له ، فالمؤيد متمسك بمايسمى ضرورة أن تكون الأعمال السردية ذات مضامين تلتزم قضايا مجتمعاتها ، وفريق مناهض يرى أن السرد يجب أن يخرج كليا عن أي التزام عدا التزامه بتقنيات السرد وفنياته وجماله [15] ، وربما كان السرد أكثر تأثيرا وقوة في التوجيه والتثقيف ، فهي ترصد الواقع ومعاناته بكل جزئياته وتفاصيله سواء كان ماديا أو معنويا بدون مبالغة أو تطرف في رسم صورة المجتمع [16]

المطلب الثالث : تمثلات الإلتزام في الرواية العراقية (بابا سارتر)

تعد الرواية العراقية من الروايات العربية المبكرة في النقاش الحي والمعاصر للقضايا الإجتماعية والسياسية والوطنية ، إذ أدرك الروائيون العراقيون الأوائل قيمة الأدب الفنية في محاكاة الهموم الإنسانية، وصوروا المشهد العراقي من خلال رصد مشكلاته الإجتماعية والسياسية والثقافية برؤية حيادية -برأيهم- متأثرين بالأدب الغربي من جهة والأدب العربي من جهة أخرى ، ولم تكن هذه الرؤى الفنية لرصد الواقع حيادية تماما ، فقد كان للسيطرة السياسية والأفكار الدينية الملتزمة عميق أثر على نتاجات العديد من هؤلاء الروائيين ، عدا ما كان من الموضوعات الاجتماعية التي تمس الحياة اليومية للفرد العراقي ، فكانت الإرهاصات الأولى للبواكير الروائية قد ارتبطت بالروائيين العراقيين الرواد كمحمود أحمد السيد ويونس ذنون وغيرهما مرورا بالفترة الذهبية للرواية العراقية الناضجة في ربع القرن الماضي الأخير كفؤاد التكرلي وعبد الخالق الركابي اللذين رسما صورة واقعية للمجتمع العراقي مستندين على كسر التابوهات و التقاليد العرفية التي كانت تتسيد المشهد العراقي بصرامة .

و لم يكن هذا الإلتزام مستندا على عقلية حجرية تصمم على تلطيف الواقع وتجميله ، بل على العكس كان التزامهم نابعا من رغبة حقيقة لإصلاح هذه العيوب واجتيازها للوصول إلى غاية

الفن التى رسخها المفكرون الأوائل إلا وهي المدينة الفاضلة التي تخلو من الموبقات و المعايب الأخلاقية.

وقد دشن الكثير من الروائيون العراقيون نتاجاتهم الأدبية متأثرين بتيار الفن ما بعد الحداثة ، ومنهم الروائي العراقي علي بدر" بأعمال روائية وثيقة الصلة بحياته الخاصة من جهة وهي من جهة أخرى مرآة عاكسة للحياة الإجتماعية والسياسية والثقافية في العراق ، حيث تدور جميع رواياته في بغداد وتتخذ من الطبقة الوسطى موضوعا لها .

صدرت روايته الأولى (موضوع البحث) بابا سارتر في بيروت عام 2001 م ، وقد عالجت الوعي الثقافي الزائف وأثر التيار الوجودي على المثقفين العراقيين في الستينات ، وقد حازت هذه الرواية على عدة جوائز ، وترجمت إلى لغات عديدة"[17].

حاول الروائي علي بدر في روايته التعبير عن أفكاره بنوع من الحيادية وتحميل شخصياته مسؤلية الأفكار التي يعبرون عنها من خلال حواراتهم الداخلية و الخارجية ، ورسم من خلال كلماته هذه الشخصيات داخليا عبر تقنية المونولوج وخارجيا من خلال عملية الوصف السردي مضفيا على كل فرد خصائصه الجسمانية والفكرية المتلائمة مع أحوال عصره بحسب قربه من بؤرة الأحداث ، وهذا يفسر التصرفات التي تميز كل شخصية من شخصياته ، وقد حزم أمره على الوقوف بموقف المحايد من هذه القضايا وانتقل من التأييد الداخلي للقضايا التي طرحها تاركا الشخصية تعبر عن معاناتها الفكرية ، مرد ذلك إمكانيته الفنية لإنتاج العمل الأدبي الروائي بوصفه فنا تصويريا يحاكي الشخصيات بكل ما تحمله من ميَزات ومعايب ، فإن "الإلتزام الأدبي هو نوع من حزم الأمر على الوقوف بجانب قضية سياسية أو اجتماعية أو فنية ، والانتقال من التأييد الداخلي إلى التعبير الخارج عن هذا الموقف بكل ماينتجه الأديب من آثار تكون حاصلة لمعاناة صاحبها ولإحساسه العميق بواجب الكفاح ولمشاركته الفعلية في تحقيق الغاية من الإلتزام "[18]، وهذه كانت مهمة الباحثة حين رصدت مظاهر إلتزام شخصياته بمبادئهم وأفكارهم الخاصة وتمت هذه العملية بناء على وجهة نظر الروائي الفنية بعيدا عن المفهوم العام لمبدأ الالتزام الديني والأخلاقي الشائع .

ولعل اختيار الروائي لثيمة الإلتزام بالأدب السارتري موضوعا لروايته مثيرا لنوع من الفكاهة الإجتماعية السوداء ، كما عند شخصيته الرئيسية (عبد الرحمن) تلك الشخصية المأزومة بتطبيق الإلتزام الوجودي دون فهم لشروط هذا الألتزام يقول: " فلنجعل من بغداد باريس أخرى، فلنجعل من بغداد عاصمة الوجودية من قال أن الوجودية لا تعنى بالسياسة ولا

بالوحدة الوطنية ؟ وإلا مامعنى الإلتزام السارتري ؟ ثم أعلن فيلسوف الصدرية تأسيس الوجودية الوطنية التي تلم الشأن الوطني بإذن سارتر "[19] ، يكشف النص عن ضحالة تفكير عبد الرحمن ومفهومه المغلوط عن الإلتزام ، ولعل الروائي حين اختط لنفسه طريق الكوميديا السوداء في تناوله لالتزام عبد الرحمن بالفكر الوجودي داع وجيه فقد ذكر في روايته أن من التزام عبد الرحمن بمباديء الوجودية السارترية أنه طلب من جيرمين زوجته الفرنسية أن تسمي توأميه حديثي الولادة ب (عبث) للولد و (سدى) للبنت [20] وهما من أهم الأفكار الوجودية التي تنادي بعبثية الوجود ، ولا يخفى على القارئ هالة السخرية التي أحاط بها شخصيته الرئيسية عبد الرحمن ، وقد تكون هذه تقنية تشخيصية اعتاظ بها الروائي عن تقويم فكر بطله والحكم عليها بمجانبة الصواب ضمنيا ، وصور أفكارها الشوهاء بكثير من الهزل الذي إن دل على شيء فهو يدل على تمكن الروائي من حرفته الفنية في السرد الواقعي .

إن مهمة تقييم الأفكار والحكم عليها من وجهة نظر الكاتب مهمة عسيرة لابد أن تكون محكومة بالقوانين الفنية للسرد ، والمباشرة في بث هذه الأحكام تسيء إلى العمل الأدبي بوصفه فنا يخاطب الوجدان ويتكيء على حذاقة القارئ ، فقد كان الروائي يتعرض لمكونات شخصيته الموضوعية فضلا عن قناعاتها بالقضايا كافة فلم يقتصر التزام عبد الرحمن بالسياسة بل قرنها بالمصلحة الشخصية ، فهو يجير السياسة لصالحه ويطوعها لملائمة رغباته ، فنراه يدافع عن الإلتزام بالحب الآني غير المقرون بالمسؤليات ، وينشر هذه الفكرة من خلال تطبيقها على نفسه أولا ثم تضمينها أحاديثه التي كان يتجاذبها مع أصحابه إسماعيل و أحمد " كان يسخر من الإنصهار العضوي في الحب ..والتلاحم في الحب .. عليه أن يبتدعه ابتداعا عليه أن ينقيه من العقم الذي أصابه على أيدي المثاليين .. أن ينقيه من سوء الفهم ، من الوحدة ، من الخيبة " [21].

وبناء على فهمه هذا فقد ربط الزواج بزوجته الفرنسية جيرمين بحصيلة ما قضاه من سنين عمره في فرنسا فاشلا في دراسته ، فهي بالنسبة له ثمرة جهوده المهدورة في التعليم ، فهو يعلم أنها قبيحة ولكنه أصر على الإرتباط بها والتزم بزواجه هذا رغم أنه " يعلم بذلك ، ولكنه يرى قبح جيرمين جمالا فجمالها ناتج عن القبح الذي يميزها " [22]، لقد التزم الروائي برسم أفكار شخوصه الروائية بواقعية ومنحها الحرية للتعبير عن أفكارها الخاصة والتزاماتها الفكرية دون أن يكون له رأي توجيهي في تصحيح هذه الأفكار فليست مهمة الأديب أن يضفي الفضيلة على أعماله الأدبية بقدر ما تكمن مهمته في رصده للواقع والتوفيق بين الحقيقة والفن الجمالي بعيدا عن المثالية[23].

وبعكس تقلبات عبد الرحمن وأهوائه ، كانت جرمين أكثر التزاما فهي " عقلانية ملتزمة بالمنطق تعلم أن عبد الرحمن عاطل عن المواهب اليسيرة ، كانت تفرق بشكل جاد بين ماهو عقلي و ماهو معتاد ، وهي أحدى مسافات الفكر الفرنسي التجريبي" [24]، " كانت جرمين على قدرة فائقة في فصل الأشياء عن بعضها على نحو لا رجعة فيه ، لقد التزمت جرمين بوضع كل شيء في مستواه ، في مكانه ، ولقد حسبت الأمر جيدا ، وقاسته قياسا ديكارتيا دقيقا "[25] ، وهذا الفكر يندرج تحت المذهب المادي للإلتزام وهو الفكر الأوربي السائد الذي آمن به المفكرون الألمان وبنوا نظرياتهم على هدم الإلتزام الروماني و نادوا بتحرير الإلتزام من الروابط الشخصية كما ضيقوا مفهوم الإلتزام بالنظرة المادية المرتبطة بالمنفعة المالية وهو عندهم بعيد عن العلاقات الشخصية المبنية على العواطف الإنسانية[26].

وبالرغم من إيمانها بالمذهب المادي الأوربي لكن جيرمين لم تتخل عن غريزة الأمومة بل التزمت بتربية أبنائها من عبد الرحمن و " قامت بالعناية بهما وتربيتهما تربية صالحة بعيدة عن أخلاق أبيهما الموسوس ، ثم التزمت بصحتها وشكلها ، لقد عادت إلى الهلع الأوربي من الشيخوخة من المرض ، من الموت والتهدم المتوالي للجسد " [27].

لقد حتم المنهج الفكري الذي اعتنقه الروائي في رؤيته الفنية لحقبة الستينات عليه أن يبرز كل معايبها ونقائصها ويبثها في أفكار شخصياته التي لم يكن عبد الرحمن وجرمين الوحيدين اللذين اعتنقاها ، بل كثف من إبراز هذه المساوئ الفكرية على إسماعيل وأحمد رفيقي عبد الرحمن والدائرة المقربة التي تحيط به وأبرز التزاماتهما الهشة بالأمور المادية ، فإسماعيل حدوب " كان يدافع عن سعادته ، ولم تكن تهمه كثيرا سعادة الفقراء من أبناء جلدته ، كان يريد أن يجعل الأشياء التي تخص سعادته على المحك " [28] فهو يبحث عن منافعه الشخصية ويدافع عنها منطلقا من من أطماعه الشخصية ، فقد أبهرته الحياة المترفة التي عرضها عليه شاؤول اليهودي وأصبح " يبحث عن المال أي مال و بأي وسيلة : سواء كان قادما من الحكمة أم من الأمم البعيدة أو من حادث وفاة ، تركة .. ، إفلاس ..لا يهم "[29] ، وليس الروائي رساما تصويريا يصور الواقع بحذافيره لكنه أديب يرسم بالكلمات ويضفي على شخصياته صفاتا تشير إلى مافي عقولهم من نقص فكري مقرون بالحوادث الواقعية المؤثرة فيها وارتباط شخصية عبد الرحمن ب إسماعيل مؤشر دقيق على ما يعتنقه من أفكار فقد كان راجعا إلى رغبة مشوشة لدى الفيلسوف [30] بنقل أفكاره الوجودية إلى شخص آخر تمثله شخصية إسماعيل حدوب الذي كانه يتبعه كظله فقد " أصر على الإلتزام به لأن اختار حريته ، والحرية التزام ، هكذا فسَر عبد الرحمن الأمر "[31].

ومن قبيل السخرية الفنية أيضا التزام الفكر الوجودي الذي نادى به عبد الرحمن كوسيلة لإسماعيل ليغطي بها خيانته لصديقه الذي قربه منه من خلال علاقته بزوجته الفرنسية جيرمين ، وكان يغطي غيابه المتكرر عن عبد الرحمن بدواعٍ سارترية " كان يتعلل أمام عبد الرحمن بأن غيابه ذو إلتزام سارتري ، إلتزام وجودي ، وهو مسؤلية ، مسؤلية لا سياسية "[32].

لقد انمازت شخصية عبد الرحمن ورفيقيه بالالتزام الشائه ، ذلك الإلتزام المبني على أفكار هشة تنم عن وضاعة معتنقيها ، وجريهما المحموم وراء الملذات والمنافع المادية التي لايحكمهما فيها وازع ولا يؤنبهما عليها ضمير، إنهما شخصيتان محكومتان بالسطحية الفكرية ، يوجهان سهام النقد ليس لغاية الإصلاح ولا رغبة في التغيير كما يدعي عبد الرحمن ، بل كانت تدفعه نفسه الضعيفة ليسخر من إلتزام الآخرين تجاه قضايا الوطن والثقافة كما دفعته غيرته للسخرية من سي معمر المناضل الجزائري الذي ترك فرنسا وقفل راجعا لبلده ليشارك في الحرب الدائرة هناك ضد احتلال فرنسا وفقد فيها أخاه شهيدا ، و ضمن غيرته تلك فلسفته الخاصة نحو الإلتزام فقال حين سمع بعودته :" عليه أن يناضل ، لا يمكن أن يكون وجوديا دون نضال ، الوجودية إلتزام "[33] ، إن إفساح غياب سي معمر لعبد الرحمن الفرصة للتودد إلى خطيبة سي معمر كان الدافع الأساسي للتذكير بالالتزام لا عن قناعة شخصية بمفهوم الإلتزام الوجودي ، فالالتزام عنده مادة سائلة يمكنها أن تأخذ شكل الإناء الذي توضع فيه .

لم يتوقف علي بدر من سخريته اللاذعة من أفكار شخصياته التي تدعي الإلتزام عند حدود شخصيتي عبد الرحمن واسماعيل بل تطرق إلى النفاق اليهودي الذي يتشرب أفكار شخصية شاؤول ذلك الرجل الذي ينادي بالالتزام الظاهري في إصلاح المجتمع ، لكنه في الواقع ينبع من نفاق تأريخي جبل عليه منذ ولادته ، فحاول أن " يتظاهر ببناء مستعمرة السعادة على الأرض "[34]، لإصلاح شخصية إسماعيل حدوب لكن رجلا مثله يهودي وغني و بخيل همه الأول والتزامه الأخير جمع الثروة لنفسه وهذا ما أدركه إسماعيل لاحقا حين استعمل حسه الغريزي فان التزام شاؤول بإصلاح التاريخ مشوب بالنفاق التاريخي لهذه الفئة تظهرها تصرفاته المشبعة باللؤم والتناقض ، كما يدعي التزامه بأفكار ثورية اشتراكية تؤمن بتوزيع الثروة على الجميع لكنه في الوقت نفسه يحرص على جمع المال " إذ لا يمكن أن يبني على الأرض مستعمرة النقاء والفداء فكيف له أن يحل هذا التناقض ؟ فشاؤول صاحب متجر عظيم وقصر فخم ، فإن كان يؤمن بالثروة للجميع فلماذا لايوزع المتجر على الفقراء ؟ "[35].

ولعل الروائي قد تطرق لموضوع يعد غاية في الأهمية ألا وهو الإلتزام بالصدق في كتابة التاريخ الذي اتخذ عند بدر حكايتين مركزيتين متعامدتين حينا ومتوازيتين أحيانا أخرى ، وهما شخصيتا عبد الرحمن وإسماعيل ، فحينما استأجر الفضائحيان نونو بهار و يوسف حنا السارد لكتابة سيرة فيلسوف الصدرية واجهته أزمة أخلاقية تمثلت بين الوقائع الحقيقية التي حدثت لعبد الرحمن وبين السيرة الزائفة الشوهاء التي يرغب الفضائحيان منه أن يسطرها عنه ، ولكنه سرعان ما فض النزاع و استسلم لشهوة المال وإن كان استسلامه ذاك مؤقتا ، وتخليه عن التزامه بالحقيقة لفترة وجيزة تنتهي بإنجاز الكتاب و كشفه للممول الرئيسي الذي كان يتوارى وراء نونو ويوسف وكشفه عن إسماعيل حدوب أو كما عرف بين الناس لاحقا بالتاجر إسماعيل زاده فقد التزم السارد بالحقيقة وكشف عن وجهها في سيرة الفيلسوف وأشار إلى شخصية اسماعيل بكل ما تحمله من معايب و هنات لا أخلاقية دفعت إسماعيل للبحث عنه ومحاولة قتله في غرفته المتهالكة في الفندق[36] .

لقد ناقش الروائي قضية الإلتزام بموضوعية بعيدا عن التحيز ، متوخيا فيها تقنية سردية تجلت فيها صنعة فنية رفيعة ، عمد من خلالها إلى إدانة الإلتزام الظاهري المنافق وهي محاولة موفقة تماما، إذ كانت فكرته قائمة على إدانة الإلتزام بالمثل والأفكار التي لا تطابق أفعال أصحابها وهي مهمة ليست هينة، لكن الروائي الناجح هو من يتعمد مناقشة الأفكار بطرق غرائبية سالكا طريقا ملتويا لإيصال المعاني الصحيحة للمتلقي بصورة فنية بعيدة عن التقريرية المباشرة .

المبحث الثاني : التحرر في الرواية العراقية

المطلب الأول : التحرر لغة واصطلاحا

التحرر لغة : عند البحث عن المعنى المعجمي لكلمة التحرر وجدنا أنها ترجع للجذر اللغوي حَرَّرَ وهي : " الحرُّ بالضمِ نقيضُ العبدِ والجمعُ أحرارٌ ، وهو من تحرّرَ العبدُ من حياةِ العبوديةِ أي : صارَ حُرًّاً ، تحرَّرَ الشعب من الاستعمار : تخلَّصَ منه ، تحرَّرَ من كلِ قيدٍ أو التزام : نفضَ يدَه " .[37]
و الحُرُّ" ضدُّ العبدِ وحُرُّ الوجهِ ما بدا منه ، والحرَّةُ ضدُ الأمةِ ، الكريمةُ يقال: ناقةٌ حرَة والجمعُ حرائر " .[38]

التحرر اصطلاحا :

لقد عرفت الحرية في مواضع عديدة من الدراسات بأنها : " سلوك (ذاتي / جمعي) يمليه العقل والإرادة دون الالتزام بقيود أو أطر معينة ضمن قوانين وقواعد من دون المساس بحقوق الآخرين وميولهم بطريقة فنية "[39]. والتحرر مصطلح حديث شاع في الدراسات الأدبية

المعاصرة ، وهي إحدى الفلسفات النقدية التي راجت بعد تغيير المفاهيم المصاحبة لمرحلة ما بعد الحداثة،هو:"محاولة الإنعتاق والتخلص من القيود المفروضة والمفاهيم السائدة سواء على المستوى الاجتماعي أو السياسي أو الثقافي أو الديني، وقد يكون على شكل تمرد أو ثورة أو رفض"[40].

المطلب الثاني : مفهوم التحرر في الأدب

انطلق مفهوم الدعوة إلى الحرية الأدبية عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية وما تلاها من تغير في المفاهيم والقناعات التي كانت سائدة سابقا ، ولعل التغييرات الفكرية والثقافية كانت ردة فعل طبيعية بسبب انهيار المثل والأخلاقيات التي كانت تتسيد المشهد في الطبقات الشعبية للمجتمعات الغربية ، وكان هذا الإنهيار ردة فعل يائسة لاستحصال الحقوق الإنسانية التي كان يفتقدهاغالبية الأدباء والمفكرين فضلا عن العامة بما فيها الطبقات النبيلة التي كانت تسيطر عليها بروتوكولات شديدة الصرامة .

وكان للأدب دور هام في حركات التحرر والثورات التي تعبر عن معاناة الناس وربما هي المحرك الأساس للتحفيز نحو التغيير، وهو ما دفع الأدباء العرب لتحقيق الحرية الفكرية والمعرفية والفنية، إذ يهدف التحرر في الأدب العربي الحديث إلى تحقيق التغيير والتجديد في الأفكار والمفاهيم والقيم المتبعة في المجتمعات العربية كما يرتبط التحرر في الأدب بالحداثة والتجديد والتحولات الثقافية ، ويتم التعبير عنه من خلال استخدام أساليب وتقنيات جديدة في الكتابة والتعبير الأدبي .

لقد كانت مرحلة ما بعد الحداثة مقرونة بالحرية في التعبير عن القضايا التي تهم الشعوب المسحوقة تحت وطأة القوانين الوضعية التي تمس الحرية الشخصية ولا تمنح الأديب الفرصة للغوص في القضايا المسكوت عنها، ويقع تحت طائلة الضغط السياسي والمجتمعي كل من يعبر عن هذه المشكلات بصراحة ، لذا انطلقت الدعوات إلى تحرير الأدب والفن من القيود المفروضة للوصول إلى أدب واقعي يحاكي هموم الأفراد خاصة والمجتمعات عامة، وقد تأثر العرب بالدعوات المناهضة للسياسات القديمة في الفكر الغربي وانتشرت الإتجاهات الأدبية الداعية لتحديث الأدب وفق مفهوم التحرر من الإلتزامات التي كانت تكبل النصوص بأصفاد وضعية وثيقة، ولما ترجمت الكتب الغربية إلى العربية مع بوادر النهضة الفكرية والعلمية العربية كانت البدايات التحررية خجلى بعض الشئ، لكنها سرعان ما واكبت التطور الحاصل في العالم الغربي وطوعته ليلائم الفكر والثقافة العربية، لقد كانت الغاية هي جعل الأدب صورة حية للواقع و

للحوادث التي نألفها وتقع أمام أبصارنا كل ساعة ، وقد سادت هذه الدعوة باديء الأمر في مصر ولبنان على يد أدباء أمثال طه حسين وقاسم أمين وغيرهما، وامتدت لتشمل عواصم عربية أخرى بالتتابع وقد " فهم كل شخص الحرية الممنوحة له .. فمنهم من وظفها بوجه إيجابي أفاد منه في الدخول إلى دوائر مغلقة بقيود محكمة وجعلها تحت بقعة الضوء وثمة أناس وظفوا التحرر والحرية بسلبية عالية وفوضوية" [41]، إذن لابد من تقنين حرية التعبير وانضواء المنتج الأدبي والفني تحت مظلة الشرائع والقوانين حرصا على تحقيق العدل وضمان حقوق الأفراد ، ولا يمكن منح الحرية الكاملة للتعبير لئلا تسود الفوضى الأخلاقية وتقييد الممارسات الخارجة عن الذوق الإجتماعي حماية للأواصر الأجتماعية والعلاقات التي تربط مكونات المجتمع العربي الذي ينماز بصبغة خاصة .

وقد توزعت عملية التغيير الفكري بالثورة على الهيمنة السياسية والحكم اللاوطني الخاضع للاستعمار الغربي، فضلا عن قضية التحرر من العادات والتقاليد البالية المتوارثة التي تكبل الأفراد وتحد من فرص حصولهم على حياة كريمة ، كذلك نادوا بتحرير المرأة و تعليمها وتمكينها من العمل بوظائف محترمة ، هذه الأصوات التحررية فصلت بين الدين والعقل وضمنت حرية الأفراد في ممارسة شعائرهم الدينية دون تعصب ، إذ كفلت دساتير الدول العربية الحديثة الحرية بنصوص قانونية تحمي حقوق الأفراد والجماعات[42] .

وقد افسحت الرواية المجال للتعبير بدقة عن مكنونات النفس نظرا لطبيعتها الأدبية التي تنماز بالنتاج الطويل المتصل بهموم الطبقات المختلفة في أي مجتمع تعبر عنه ، إذ نهض الروائيون لكتابة نصوص إبداعية مستندة إلى العقلية المتفتحة منطلقين من مبدأ ينادي ب " أن رسالة أي كاتب يجب أن تكون توطيد أركان الحرية هذا من ناحية ، كما إن العمل الإبداعي فعل حر ، وممارسة الحرية تقودنا – شئنا أم أبينا – إلى سلوك إبداعي من ناحية أخرى "[43].

المطلب الثالث : تمثلات التحرر في رو اية بابا سارتر

تعد الرواية العراقية من أهم الروايات التي انشغلت بها الدراسات الأدبية المعاصرة وقد استمدت انشغالات الروائيين العراقيين قضاياها من مناقشة الواقع العراقي ، إذ خلع الروائيون العراقيون المحدثون الرداء الرومانسي الخالص الذي كان سائدا في نتاج الرعيل الأول لنشأة الرواية في العراق وارتدوا ثوب الواقعية الذي استلهم قصصا وحكايا حقيقية من المشهد العراقي بكل همومه وعاداته ومآسيه التي كابدها في المرحلة السابقة [44].

وكان (علي بدر) من الجيل الروائي العراقي الشاب الذي ارتأى مناقشة هذه القضايا في رواياته إذ كان يؤرخ لمرحلة الستينات في العراق في روايته بابا سارتر وهي خطوة جريئة في توثيق الفكر العراقي المتناقض آنذاك ، وقد مثلت الرواية محل البحث صورة التحرر والجرأة- نوعا ما- في طرح الأفكار بهدف تفكيك صورة السلطة السياسية والدينية المزعومة فضلا تقويض الفكر الأديولوجي للمد الوجودي الذي كان قد انتشر في أوساط فئة تدعي الثقافة[45] ، وجعل منطقة الصدرية المكان الروائي الصاخب بهذه الأصوات نظرا للنسيج المعقد للشخصيات التي حاك حولها خيوط روايته ، فقد عكس وجهة نظره الساخرة من الواقع الذي ماتزال أحداثه تتماهى في ذاكرة الفرد العراقي حتى الوقت الراهن ، وخلّفت سجلا تاريخيا إبداعيا جعلت الرواية فنا جديرا بنقل و رصد الأحداث التي جرت في البيئة العراقية في بؤرة صغيرة هي منطقة الصدرية في جانب الرصافة من بغداد ، سالكا في عمله السردي رؤية رمزية محكومة بالواقع السياسي والثقافي الذي تم في غضونه كتابة روايته .

وقد ناقش قضية التحرر بصور ساخرة من الجيل الستيني في العراق الذي كان معروفا بتناقضاته بين الطبقة الفارهة الغنية و الطبقتين الوسطى والشعبية اللتان تمثلان المعاناة الإنسانية للفوارق الطبقية يمثلها شاؤول التاجر اليهودي الجشع وإسماعيل حدوب الشخصية الإشكالية المتسلقة ، والمتثاقف المتناقض يمثلها عبد الرحمن فيلسوف الصدرية .

كانت شخصية عبد الرحمن أو بابا سارتر كما عمد محيطه من سكان منطقة الصدرية أن يلقبوه شخصية مأساوية متناقضة محكومة بسوء الفهم للالتزام والتحرر ، عبّر الكاتب عن تناقضاته هذه بأسلوب النكتة ليبرز الفهم المقلوب للفكر الوجودي في الثقافة العربية ، فقد مرر الكاتب على لسانه أفكاره السطحية الفارغة من أي فكر معرفي رغبة في الحصول على الشهرة والوجاهة[46] ، و منها دعوته إلى التحرر من الأخلاقيات والسلوكيات الملتزمة الرائجة في المجتمع الشرقي كتحرره من الألتزامات الأخلاقية تجاه الزوجة والأسرة بعودته إلى العراق بزوجة فرنسية " لذا فإنه عاد إلى بغداد بامرأة إفرنجية تفوقهم أخلاقا وفلسفة و كان يريد احتقارهم وإهمالهم وإظهار تفوقه الفلسفي والفكري عليهم "[47] ، إن شعور عبد الرحمن بمركب النقص انفجر داخله بحثا عن ما يسد هذا النقص الفكري شكلا وموضوعا ، فعندما ننظر إلى رغبته الشديدة في حصوله على عين عوراء يشابه فيها ملهمه الوجودي سارتر، يعود ليبث افكاره التي يتسلل إليها مركب النقص فيزدري التقاليد العربية التي تقدس الحياة الزوجية وتمنح المرأة الحماية الكاملة في ظل هذا الإلتزام ، وعليه ينبثق فكر عبد الرحمن مقرونا بالنقص الفكري

الذي يعتنقه للتخلي عن هذه الإلتزامات والتحرر منها فقد أعلن احتقاره لبنات وطنه وعد زواجه منهن تقديرا وتشريفا لا يمكن أن يمنحه لهن .

ولعل فكرة عبد الرحمن عن العلاقات العاطفية والحب تشابه فكرته عن الزواج فلم يكن يميز العلاقة العاطفية بين الرجل والمرأة إلا من خلال فكره الوجودي المتحرر الذي يبحث عن العبثية في كل شيء و" لأنه كان وجوديا جدا فقد كان الحب بالنسبة إليه مثل أي شئ آخر غير موجود ، هكذا ببساطة غير متشكل ، غير متكون ، غير موجود لأن الحب من العدم ، والعدم وحده خالق كل شئ"[48] فعبد الرحمن كان وجوديا جدا ، ولأنه كان وجوديا فهو ينبذ الحب المستحيل الناتج عن الآلام واللوعة والعذاب كانت فكرته أن يتحرر من التزامات العلاقات العاطفية ، من توهجات البدايات وأحزان النهايات " عليه أن ينقيه من العقم الذي أصابه على أيدي المثاليين .. أن ينقيه من سوء الفهم، من الوحدة من الخيبة "[49]، ظهرت سخرية الكاتب واضحة في معرض سرده عن تحرر عبد الرحمن من المسؤليات الأسرية التي يحملها الرجل الشرقي على عاتقه عند بناء النواة الأساسية للمجتمع ، وواضح من خلال السرد أن علي بدر مارس نوعا من النقد الخفي لمعتنقات بطله الفكرية وأيد هذه الفكرة بوضعه نهاية مأساوية لشخصية عبد الرحمن عندما تعرض للخيانة من أقرب الناس إليه زوجته الفرنسية و صديقه إسماعيل ثم القتل على يد حارس الجامع .

ولم يكن تحرره هذا مقتصرا على الجانب العاطفي ، بل أصر على التخلي عن كل ما يربطه بطبقته الأجتماعية الغنية التي تكبله بقيود الثقافة والتأنق إذ كان " عبد الرحمن يريد أن يكون منفصلا عن طبقته، مبتعدا عنها، كارها لها، وكان لا يفوته أن يعلن عن ذلك الأمر، وهذا بطبيعة الحال يذكره على الدوام بأنه ينتمي إلى طبقة راقية ، إلى طبقة رفيعة ..كان يريد أن ينزل السلم"[50] كذلك فعلت جيرمين زوجة عبد الرحمن التي التزمت بالأفكار الوجودية لزوجها طوال فترة بقائها في العراق، لكنها تتغير بمجرد رجوعها لبلدها حاملة طفليها ، فالتزامها كان عبارة عن مجاملة شكلية لأفكار زوجها سرعان ما تخلت عنها و" تحررت من الالتزام الذي فرضته على نفسها عقب زواجها بعبد الرحمن ، فتخلت عن (الغثيان) وتوقفت عنه توقفا تاما ، إذ لم تعد تعبأ بفلسفته ولا به "[51].

ولعل اشتغال الروائي على ثيمة التناقض الفكري لشخصيات روايته ومواقفهم المتغيرة بحسب مصالحهم الشخصية تجاه قضيتي الالتزام و التحرر كانت ناجحة جدا بحسب ما وضح سابقا ، فالغاية الأساس هي إبراز الفهم الخاطئ لهذه القضايا المصيرية التي كانت شائعة على نحو كبير في

تلك المرحلة من تاريخ العراق الانفتاحي ، ولم تقتصر هذه التجربة على شخصية واحدة بل إن الأغلب الأعم من شخوص هذه الرواية كان يمارس هذه الازدواجية ومنهم شخصية إسماعيل حدوب ذلك المتشرد المشغول بالتسلق الطبقي فقد تحرر إسماعيل بكل ما تحمله نفسه من وضاعة من القوانين التشريعية والوضعية والأخلاقية المتبعة في سبيل الحصول على المال وارتداء ثوب الوجاهة ، لقد أصبح أداة لجمع المال ، وكان لايهمه مصدر هذا المال ولا طريقة جمعه " إسماعيل يبحث عن المال ، أي مال ، وبأي وسيلة " [52] فقد كان مؤمنا بالمنافع المادية ومغرما بها ، منقذفا نحوها بشكل غريزي " يريد اسماعيل صور الثراء والإعجاب والأبهة ، لأنه يريد الوصول إلى نهاية السلم "[53]وموقفه هذا يناقض موقف عبد الرحمن الذي كان يريد التحرر للهبوط إلى الطبقات الدنيا في المجتمع ، فكان الجمع بين هاتين الشخصيتين من المفارقات التي نجح الروائي في ربطها ببعضها في صراع شخوص روايته للوصول إلى قمة التناقض الفكري والثقافي لقضية التحرر الطبقي .

لقد أبرزت اشتغالات الكاتب على بيان هذه المفارقات تخبط الفئات المتثاقفة في المجتمع العراقي وصورت المفاهيم المغلوطة عن الفكر الغربي التي كانوا يحاولون تطبيقها على المجتمع العراقي من ناحيتي الالتزام والتحرر ولو كان تطبيق هذه المفاهيم ناتج عن عقلية مدركة للحيثية الإجتماعية العراقية وظروفها الخاصة لكانت دفعت عجلة التطور الفكري والمعرفي والثقافي لكن الأمر حينها لم يتم للأسباب المشار إليها سابقا .

ولعل سمة التحرر من القيود الأخلاقية والقانونية كانت شائعة في معظم معتنقات الشخوص في الرواية بدءا من شخصية جواد الكاتب المأجور الذي وظفه إسماعيل لكتابة سيرة فيلسوف الصدرية بواسطة الفضائحيان – كما وصفهما الروائي – حنا يوسف ونونو بهار فلم يكن عمله في كتابة سيرة حياة عبد الرحمن موضوعيا ، فكان الكاتب مدفوعا بحاجته للمال يقول :" كنت فرحا بالمال فرحا كبيرا لاسيما أنني كنت مفلسا إفلاسا لا يعرفه إلا صديقي "[54] ، كذلك حين سلمته نونو بهار ورفيقها الوثائق التي تحوي أكاذيب ملفقة مفتعلة مكتوبة بخط الأيدي فقد أبلغاه أنهما " لا يدفعان له المال لأنه رجل شريف ..لا لا على الإطلاق .. قالت نونو بهار وانفجرت بضحكة ناعمة ، وتابعت بصوت كسول لكننا شرفاء وشرفنا لا يصرف علينا " [55].

كما نلاحظ قسوة الروائي في إطلاق الأحكام و تحامله على نسبة كبيرة من الكتاب والفلاسفة بعد رصده المتوقظ للشارع العراقي ، وهي قسوة لها ما يبررها ، فقد كان يضمن حواراته بعض آرائه الجريئة في ما يتسيد المشهد الثقافي ممثلا بطفو فئة من الكتاب مدعي الثقافة ، ويطلق أحكامه

عليهم بلسان إحدى شخصياته وهي نونو بهار التي تمثل الوسيط بين جواد كاتب سيرة الفيلسوف وبين الممول السري لمشروع الكتابة إسماعيل حدوب تقول :

" لا .. لا هذا الأرعن لم يكتب كتابا واحدا في حياته"

" أرعن ...!" قلت .

" كل فيلسوف أرعن " قالت نونو بهار ...

" نعم ! كل فيلسوف أرعن . لكن هنالك أرعن يكتب كتبا تسهل الأمر على اللذين يكتبون سيرته ، وهناك أرعن لا يكتب كتبا ، فيقتضي أن ندفع مالا لشخص ينقب ويكذب و يؤلف ، ليصنع منه فيلسوفا حقيقيا "، ثمة إشارة خفية على تحرر بعض الكتاب من أخلاقيات العمل الكتابي في إلتزام جانب الأمانة العلمية عند توثيق سيرة من يكتبون عنهم واعتبار الأمر صفقة تجارية يمكن أن تقايض بمبلغ من المال يتقاضاه بعد أن ينتهي من تدوين هذه السيرة غير ملتفت إلى التبعات التي تلاحق نشر هذه الأكاذيب وما تجنيها على المترجم لهم من تبعات فضلا عن تزييف الوقائع وتشويه التأريخ ، والسارد نفسه صرَح باستسلامه لكتابة الأكاذيب حبا في المال متحررا في فعلته تلك من الالتزامات الأخلاقية التي تمليها عليه قوانين كتابة التأريخ يقول : " أما سببي الحقيقي الذي تجاوزت به هذا الأمر فهو المال ، لقد كنت مفلسا تماما ، فلم أجد نفسي ضائعا أو مترددا إنما كان علي أن أقرر الأشياء فيما بعد ، وربما في اليوم التالي ، وهو اليوم الذي أطلقت عليه (يوم رحلة البحث عن سيرة الفيلسوف) وهذا بطبيعة الحال أمر لا أخلاقي ، فأنا لم أكن طوال حياتي أخلاقيا موسوسا ، ولا فضائحيا متحمسا ، إنما لم أدرك في ذلك الوقت أن للشرف والأخلاق هذا التأثير المسموم على بعض الناس " [56]فتخلي السارد عن الحقيقة بادىء الأمر وتحرره منها كان له سببان الأول حاجته للمال ، والثاني اعترافه بتحرره من الاخلاقيات الرفيعة ، لكنه يستدرك في ذات الوقت بأنه مع مايحمله من تحرر إلا أنه غير متهافت على الفضائح ولا مهووس بتتبعها وكشفها .

لعل الروائي كان موفقا في إرسال هذه الرسائل الأخلاقية الحادة المبطنة بالأسلوب الهزلي الكوميدي بمواقف ساخرة تنقد وتنتقد الواقع والحياة وهي محاولات روائية تعد على رؤوس الأصابع عراقية وعربية 57، كما أدان علي بدر سلوك شخصياته المتحرر من الأخلاقيات الموضوعية والفنية تجاه الحقائق الواقعية من خلال حوارهم الداخلي والخارجي وجعل القارئ ينفر من هذه الأخلاقيات بصنعة فنية تمارس سلطة خفية في توجيه ردود أفعال المتلقين نحو الشعور بالإشمئزاز الطبيعي تجاه الأفعال غير المنضبطة والمقيدة بوازع ديني أو أخلاقي .

الخاتمة

حاولت هذه الدراسة رصد الجوانب الارتكازية للأفكار الالتزامية والتحررية المكتسبة بفضل التيارات ما بعد الحداثية وأثرها على الفكر العراقي وطريقة تطبيقها العملية من خلال رصد النصوص الروائية وتفسيرها وفقا للمنهج التحليلي للنصوص في رواية بابا سارتر للروائي العراقي علي بدر ، و خلصت إلى أهم النتائج وهي كما يأتي:

1. أبرزت الدراسة البحثية لموضوع الالتزام والتحرر الأفكار السطحية للتلقي المفاهيمي العراقي للقضايا الفكرية الغربية في مرحلة مهمة من مراحل التأريخ العراقي المعاصر- الستينات - تلك الحقبة التي ساد فيها فوضى الفكر واختلاط المفاهيم .
2. سلطت الضوء على البون الشاسع بين الكلام النظري المحكوم بطبيعة بيئة معينة وبين التطبيق على بيئة أخرى لا تماثلها في الحيثيات الدينية والفكرية والاجتماعية .
3. لم تكن تلك المفاهيم حكرا على طبقة معينة لكنها امتدت لتشمل مختلف الطبقات الاجتماعية والثقافية التي تناولها الكاتب في روايته ، فشخوص هذه الرواية يتأرجحون بين الالتزام والتحرر في القضايا المصيرية و بين القبول والرفض بحسب مصالحهم الشخصية دون الاهتمام بآثار تلك الأفكار وتخبطها على مصائرهم و ومصائر من حولهم .
4. شخصت الدراسة التناقض الفكري لهذه الفئات من خلال استنطاق النصوص الروائية التي دارت على ألسنة شخوص هذه الرواية بواسطة الحوار الخارجي أو الداخلي ، كذلك من خلال السرد الذي كشف عن مكنونات هذه النماذج فضلا عن الوصف المكاني والزماني للبيئة العراقية وما كانت تعانيه من عشوائية فكرية في تطبيق هذه المفاهيم .

لقد استندت هذه الدراسة على إبراز التناقض الفكري لشخوص هذه الرواية تجاه قضيتين مهمتين هما الالتزام والتحرر وتطويعهما للوصول الى مآرب مادية بحتة دون الركون إلى أساس متين من الدراسة والاطلاع ، وفي نهاية مطاف هذه الدراسة لا يسعني إلا الرجاء في أن أكون قد وفقت إلى ما سعيت وأسأل الله (عز وجل) القبول ومنه التوفيق .

الهوامش:

---

[1]) لسان العرب ، محمد بن مكرم بن علي ، ابن منظور ، دار صادر ، بيروت ، ط:3 ، 1414 ، ج: 12 ، ص: 541 .

[2]) المصدر السابق : جزء :12 ، ص:541- 542 .

[3]) القاموس المحيط ، الفيروزآبادي ، دار المأمون ، ط : 4 ، 1938 ، ج : 4 ، ص : 175 .

[4]) ينظر : معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب ، مجدي وهبة و كامل المهندس ، مجدي وهبة ، مطبعة دار القلم ، بيروت ، ط:1 ، 1974 م ، ص: 58 .

[5]) عماد الدين خليل ، حياته وآراؤه النقدية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب واللغات ، جامعة أم القرى ، 2000م ، ص: 65 .

[6]) معجم مصطلحات الأدب ، ص : 58 . كذلك ينظر : مفهوم الإلتزام في الأدب ، سحر عبد القادر اللبان ، موقع صيد الفوائد ، موقع على الانترنت .

[7]) ينظر : دراسة ظاهرة الإلتزام في رواية الولي الطاهر يعود إلى مقامه الإزلي ، الطاهر وطار ، زينب منصوري ، موقع على الانترنت .

[8]) الالتزام في الأدب ، نص لزكي نجيب محمود بعنوان من هو الناقد؟ ، إعداد كزاز سارة ، حنشي عمرية ، بحث ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة محمد خيضر بسكرة ، الجزائر ، ص: 3 .

[9]) ينظر : إضاءات على مفهوم الإلتزام ، عمر مصلح ، أكاديمية الفينيق للأدب العربي ، موقع على الإنترنت .

[10]) ينظر : النقد الأدبي الحديث ، محمد غنيمي هلال ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، د.ت. ، ص: 457.

[11]) الأدب الملتزم ، جان بول سارتر ، ترجمة جورج طرابيشي ، منشورات دار الأدب ، بيروت ، ط : 2 ، 1967 م ، ص : 44 ، 45 . كذلك ينظر : مفهوم الإلتزام في الأدب ، مصدر سابق .

[12]) ينظر : معجم المصطلحات العربية ، ص : 58 .

[13]) مفهوم الالتزام الإسلامي في المعارك الأدبية ، دراسة لأعمال مصطفى صادق الرافعي ومحمود شاكر ، عبد الناصر صبير ، بحث منشور في مجلة التجديد ، المجلد :16 ، العدد : 31 ، 2012م ، ص:139.

[14]) المصدر السابق ، ص: 144 .

[15]) ينظر : الالتزام في الرواية ، مقالة على النت ، موقع الخليج .

[16]) ينظر :الرواية ومحنة العالم في مواجهة كورونا ، رواية محنة كورو اختيارا ، أ.م.د. سولاف مصحب مهدي ، بحث ، مجلة إكليل للدراسات الإنسانية ، ع : 17 ، 2024 م ، ص: 20 .

[17]) جائزة كتارا للرواية العربية ، موقع على الإنترنت .

[18]) قضية الإلتزام بين الخطابين النقدي والشعري في الأدب المعاصر ، فيراموز ميرزائي ، مجلة إضاءات نقدية ، سنة:8 ، ص : 5 ، كذلك ينظر : المعجم الأدبي ، جبور عبد النور ، دار العلم للملايين ، د.ت. ، 1984 م ، ص: 31

[19]) بابا سارتر ، علي بدر ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط:3 ، 2009 ، ص: 53 .

[20]) ينظر : الرواية ، ص: 59 .

[21]) المصدر السابق ، ص: 54 .

[22]) المصدر السابق ، ص : 54 .

[23]) ينظر : الأدب وسؤال الحرية ، سهيل فتياني ، موقع عربي على الإنترنت .

[24]) الرواية ، ص: 56

[25]) المصدر السابق : 56.

[26]) ينظر : المذهب الشخصي والمذهب المادي في الإلتزام ، الموسوعة العربية ، موقع على الإنترنت .

[27]) الرواية ، ص : 59 .

[28]) المصدر السابق ، ص : 82 .

[29]) المصدر السابق ، ص : 83 .

[30]) لقب ساخر أطلقه سكان الصدرية على عبد الرحمن يعد إسقاطا لفشله في الدراسة في فرنسا ورجوعه محملا بالأفكار الوجودية ومناداته بها في لقاءاته التي كان يجريها بين الرعاع و المجرمين في المنطقة ، ومنهم إسماعيل .

[31]) الرواية ، ص : 89 .

[32]) المصدر السابق ، ص : 101 .

[33]) المصدر السابق ، ص: 53 .

[34]) المصدر السابق ، ص : 83 .

[35]) المصدر السابق ، ص : 81 .

[36]) ينظر الرواية ، ص: 12 .

[37]) قاموس المعاني الجامع ، مادة حرر .

[38]) مختار الصحاح ، مادة حرر.

[39]) مفهوم الحرية في نصوص عواطف نعيم ، عمار فاضل أكرم ، مجلة نابو للبحوث والدراسات ، مج :4 ، 2023 ، ص: 943 .

[40]) قوة التحرر في الرواية العراقية ، دراسة في ضوء فلسفة ما بعد الحداثة ، م.م. هديل حسام الدين أحمد ، مجلة التراث العلمي العربي ، ع: 51 ، 2021 م ، ص: 88

[41]) قوة التحرر ، ص : 88 .

[42]) ينظر : مفهوم الحرية ، ص : 940 .

[43]) الأدب وقيمة الحرية ، د. عمار علي حسن ، جريدة الإتحاد . مقال على الإنترنت .

[44]) ينظر : قضايا الرواية العراقية الحديثة في الفترة من 1990 وحتى 2011 م ، إعداد فاطمة حسن محمد الماوردي ، مجلة البحث العلمي في الآداب ،العدد :9 ، 2018 م، جزء : 3 ، ص :2 .

[45]) ينظر : قوة التحرر ، ص: 100 .

[46]) ينظر : فيلسوف الصدرية : عن تهافت المشهد الثقافي العربي وتشوهاته في رواية (بابا سارتر) ، معاذ بني عامر ، موقع تكوين .

[47]) الرواية ، ص : 53 .

[48]) ينظر : الرواية ، ص: 54 .

[49]) المصدر السابق والصفحة .

[50]) المصدر السابق ، ص : 68 .

[51]) المصدر السابق ، ص : 59 .

[52]) المصدر السابق ، ص : 83 .

[53]) المصدر السابق ، ص : 88 .

[54]) المصدر السابق ، ص: 9 .

[55]) المصدر السابق ، ص: 11 .

[56]) المصدر السابق ، ص:14.

57) ينظر : سيرة الوجودي العربي الأول ، بابا سارتر ، فيلسوف الصدرية ، عبد الإله الجوهري ، مقالة ، مجلة نقد ، العدد: 21 . موقع على النت .

المصادر

- الأدب الملتزم ، جان بول سارتر ، ترجمة جورج طرابيشي ، منشورات دار الأدب ، بيروت ، ط : 2 ، 1967 م .
- الأدب وسؤال الحرية ، سهيل فتياني ، موقع (عربي) على الإنترنت
- الأدب وقيمة الحرية ، د. عمار علي حسن ، جريدة الإتحاد . مقال على الإنترنت.
- إضاءات على مفهوم الإلتزام ، عمر مصلح ، أكاديمية الفينيق للأدب العربي ، موقع على الإنترنت .
- الالتزام في الأدب ، نص لزكي نجيب محمود بعنوان من هو الناقد؟ ، إعداد كزاز سارة ، حنشي عمرية ، بحث ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة محمد خيضر بسكرة ، الجزائر .
- الالتزام في الرواية ، مقالة على النت ، موقع الخليج
- بابا سارتر ، علي بدر ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط:3 ، 2009 .
- جائزة كتارا للرواية العربية ، موقع على الإنترنت
- دراسة ظاهرة الإلتزام في رواية الولي الطاهر يعود إلى مقامه الإزلي ، الطاهر وطار ، زينب منصوري ، موقع على الانترنت .
- الرواية ومحنة العالم في مواجهة كورونا ، رواية محنة كورو اختيارا ، أ.م.د. سولاف مصحب مهدي ، بحث ، مجلة إكليل للدراسات الإنسانية ، ع : 17 ، 2024 م .
- عماد الدين خليل ، حياته وآراؤه النقدية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب واللغات ، جامعة أم القرى ، 2000م، الرسالة موجودة على النت.
- فيلسوف الصدرية : عن تهافت المشهد الثقافي العربي وتشوهاته في رواية (بابا سارتر) ، معاذ بني عامر ، موقع تكوين .
- القاموس المحيط ، الفيروزآبادي ، دار المأمون ، ط : 4 ، 1938 م .

- قضايا الرواية العراقية الحديثة في الفترة من 1990 وحتى 2011 م ، إعداد فاطمة حسن محمد الماوردي ، مجلة البحث العلمي في الآداب ،العدد :9 ، 2018 م.
- قضية الإلتزام بين الخطابين النقدي والشعري في الأدب المعاصر ، فيراموز ميرزائي ، مجلة إضاءات نقدية ، سنة:8 .
- قوة التحرر في الرواية العراقية ، دراسة في ضوء فلسفة ما بعد الحداثة ، م.م. هديل حسام الدين أحمد ، مجلة التراث العلمي العربي ، ع: 51 ، 2021 م.
- لسان العرب ، محمد بن مكرم بن علي ، ابن منظور ، دار صادر ، بيروت ، ط:3 ، 1414 هج .
- مختار الصحاح ، زين الدين بن ابي بكر الرازي ، ت: يوسف الشيخ محمد ، المكتبة العصرية، بيروت ، 1999م .
- المعجم الأدبي ، جبور عبد النور ، دار العلم للملايين ، د.ت. ، 1984 م ، ص: 31
- معجم المعاني الجامع ، محمد بن ابي الفضل الزمحشري ، موقع على الانترنت.
- معجم مصطلحات الأدب ، مجدي وهبة ، مطبعة دار القلم ، بيروت ، ط:1 ، 1974م .
- مفهوم الالتزام الإسلامي في المعارك الأدبية ، دراسة لأعمال مصطفى صادق الرافعي ومحمود شاكر ، عبد الناصر صبير ، بحث منشور في مجلة التجديد ، المجلد :16 ، العدد : 31 ، 2012م .
- مفهوم الإلتزام في الأدب ، سحر عبد القادر اللبان ، موقع صيد الفوائد ، موقع على الانترنت .
- مفهوم الحرية في نصوص عواطف نعيم ، عمار فاضل أكرم ، مجلة نابو للبحوث والدراسات ، مج :4 ، 2023 ، ص: 943 .
- النقد الأدبي الحديث ، محمد غنيمي هلال ، دار نهضة مصر ، القاهرة د.ت.

The Duality of Commitment and Liberation and their representation the novel of "papa Sartre" by Ali Bader

Dr. Noor aqil mohammed saeed

College of Women- Al Iraqia University

Noor.a.mohammed@aliraqia.edu.iq

Keywords: Commitment . Liberation . Novel

Summary:

The novel is the most prominent prose genre in addressing social and moral issues, likely due to its extended form and ability to resonate with diverse societal groups, irrespective of cultural, class, or gender backgrounds. This feature has paved a clear path for writers and novelists to explore various directions to express their beliefs and exercise the freedom granted by the art of the novel. They oscillate between the intertwined methodologies of commitment and liberation, at times merging them and at other times diverging to the point of contradiction.

The selection of "Papa Sartre" by Ali Bader for this study stems from its explicit nature and the author's deep engagement with societal issues, aiming to expose its symptoms and depict them realistically to the readers. Through this attempt, the novel achieves its artistic goal of uncovering a society that is either committed or liberated, guided by genuine convictions or by goals cloaked in material and moral interests.